مقدمة

من المواد التى لم تحظ بعناية كبيرة من الباحثين والمؤرخين العرب موضوع الملابس وتاريخ الأزياء وتطورها للرجال والنساء فى مصر على مر العصور والأزمان، وقلما نجد باحثا أو مؤلفا أفرد بحثا لملابس النساء أو لملابس الرجال فى فترة من فترات التاريخ المصرى الطويل الضارب فى أعماق التاريخ، فيما عدا ملابس قدماء المصريين، إلا أن ذلك يأتى لماما، وفى ثنايا الحديث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية، مما يتعب الباحث فى هذا الموضوع، إذا أراد له الاستقصاء والمزيد.

وقد حاول بعض المؤلفين فى العصر الحديث أن يجمعوا بعض شتات هذا الموضوع فى كتيبات أو محاضرات تعتبر بحق محاولات ناجحة وجهودا موفقة مشكورة لأن البحث فى مثل ذلك يقتضى تنقيبا فى كتب مختلفة الأنواع والمواد والعصور.

والغريب فى الأمر أن الأزياء المصرية القديمة نالت عناية واهتماما من كتّاب الغرب. أكثر مما نالته من الكتاب الوطنيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

فهناك كتاب وصف مصر لرجال «الحملة الفرنسية»، وكتاب العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين «لإدوارد وليم لين»، وكتاب لمحة عامة على مصر «لكلوت بك»، وقاموس «دوزى» لأسماء الملابس العربية فى مُعجمه سنة ١٨٤٥ م، وما كتبه R. Levy من تعليقات عن الملابس الإسلامية من المراجع العربية من مجلة الجمعية الآسيوية الملكية J.R.A.S. سنة ١٩٣٥ م، رغم أنها مجهودات علمية لها وزنها وتقديرها، إلا أن واحدا منها لا يُعتبر عملا علميا متخصصا وكاملا عن الأزياء المملوكية وحدها مثلا.

كما تحدث «مايير Mayer» عن ملابس المماليك فى كتابه المسمى بذلك. ولعل قيمة هذا الكتاب تظهر بوضوح إذا عرفنا أن هذا الموضوع (الملابس المملوكية) لم يتناوله بالبحث أحد علماء الآثار الإسلامية فى الشرق أو الغرب فى مدى عشرين عاما أى منذ أن انتهى «ماير Mayer» من نشر كتابه هذا سنة ١٩٥٢.

وغريب كذلك أنه فى مصر العربية لم تتعرض الدراسة للملابس والأزياء المصرية فى مدارس الفنون والمعاهد المتخصصة بقدر الدراسة والتعمق فى دراسة الأزياء الأوروبية وتطورها على أساس أنها مصدر للموضات الحديثة.

وعلى ذلك يمكن الاستفادة من هذا الكتاب فى كليات الاقتصاد المنزلى وأقسام الملابس والنسيج بمصر والكليات المتناظرة بالدول العربية وكليات التربية النوعية وكليات الفنون الجميلة والتطبيقية والفنون المسرحية ومعهد السينما.

ويلاحظ أن المكتبة العربية تكاد تخلو من الحديث عن ملابس المرأة العربية وكذلك الرجل إلا قليلا منذ بداية العصر الإسلامى وحكم المماليك وحتى نهاية الحملة الفرنسية على مصر وما بعدها إلا ما جاء على لسان الكتاب الغربيين المشار إليهم.

والفن الإسلامى عموما لم يستهدف محاكاة الطبيعة عند معالجة الموضوعات الفنية وكذلك كراهيته لتصوير الكائنات الحية.

فقد كان رسم الكائنات الحية شائعا فى الوطن العربى قبل الإسلام. وكان يبتعد عن المحاكاة أو يقترب منها طبقا للظروف المختلفة التى تكون سائدة ولكنه لم يستهدف المحاكاة الحرفية التى كانت فى الفن الإغريقى والرومانى ثم فى عصر النهضة فى أوروبا، لاختلاف أساسى فى الهدف والغاية الاجتماعية من الفن، بل إن الأقاليم العربية فى فترة النفوذ الإغريقى، حرصت على التخلص من سيطرة الفن الإغريقى والابتعاد عن أساليبه فى تصوير الكائنات الحية، ويؤكد هذا الرأى الأساتذة ل. برهير "L. Bréhier" ، هـ تراس "T. Terrasse"، نيلسن "Nielsen"، لامانس "Lammans"، حيث يُجمعون على القول بأن الآثار فى الشرق الأدنى قبل ظهور الإسلام بحوالى ثلاثة قرون تنبئ عن ثورة على الروح الإغريقى فى الفن، وتثبت أن الأساليب الفنية التى تمخض عنها الفن الهلينى فى آسيا الصغرى والشام ومصر بدأت فى البعد عن تصوير الإنسان والحيوان، وعن العناية بتصوير الأجسام واحترام أصول التشريع، وانصرفت إلى الموضوعات الزخرفية النباتية والهندسية، فندرت صناعة التماثيل المجسمة، ورجع الفنانون فى الشرق الأدنى إلى روح الأساليب الفنية التى ازدهرت فيه على يد الأشوريين والحيثيين، ويعتقد هذا الفريق من العلماء أن انصراف المسلمين عن تصوير الإنسان والحيوان كان حلقة طبيعية من سلسلة تطور الفن فى الشرق الأدنى. وأن الفن المسيحى فى هذه الأقاليم قد مهّد لتلك الحركة بالبعد عن الأصول الإغريقية. [د/ زكى محمد حسن – التصوير عند العرب صـ ١٣٨].

وأشرق الإسلام بنوره على العالم. وقضى على عبادة الأصنام وأزالها، إلى جانب العقيدة الوحدوية الربانية.

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يرد فيه نص صريح بمنع ممارسة تصوير الكائنات الحية. فإن بعض الأحاديث النبوية جاءت بأن تصوير الكائنات الحية حرام شديد التحريم.

وقد استقر الكثيرون من المفسرين والفقهاء على أن القصد من هذا التحريم هو إبعاد المسلمين عن عبادة الأصنام التى كانت سائدة عند كثير من القبائل العربية. ولا يكون حراما إذا ما قُصد به الزينة المباحة. وقد أورد الدكتور زكى محمد حسن دراسة لهذه القضية، سجّل فيها وجهات النظر المختلفة، والتى توجد فى كتاب التصوير عند العرب للمرحوم تيمور [د. زكى محمد حسن – التصوير عن العرب صـ ١١٧].

ومن المستشرقين والعلماء المعاصرين من يعارض نظرية التحريم أصلا، ومن هؤلاء الأستاذ كريزويل [كريزويل – العمارة الإسلامية المبكرة جـ ١ ص ٢٦٩]، والأب لامانس [هـ لامانس – المجلة الأسيوية مجلد سنة ١٩١٥ ص ٢٣٩] والأستاذ أرنولد "Arnold". [أرنولد – التصوير فى الإسلام صـ ٧]، مادام لا يصرف المسلمين عن العقيدة أو العمل. وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده: «وبالجملة يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تُحرِّم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد التحقيق أنه لا خطر منه على الدين لا من جهة العقيدة، ولا من جهة العمل». [الشيخ محمد عبده: فتوى التماثيل وفوائدها وحكمها، الفنون الجميلة لأحمد يوسف].

وهناك رأى غريب قاله الأستاذ قييت [قُييت وهوتكير: مساجد القاهرة، صـ ١٧١]. وهو أن فزع المسلمين من التصوير مرده إلى اعتقادهم أن للصور قوى سحرية، وأن الشعوب السامية كلها تخشى الصور. وهذا رأى لا يخضع لأى منطق – تاريخى أو علمى – والعقيدة الإسلامية السمحة تعلو فوق كل هذه الخُرافات.

والخروج من هذه الأقوال بأن العقيدة الإسلامية السمحة لم تُحرِّم عمل الصور إذا كان الغرض منها الزينة المباحة أو إقرار حقيقة علمية أو شرعية. ودليل ذلك ما خلفه المسلمون فى جميع أرجاء الوطن الإسلامى من آثار تزخر برسوم الكائنات الحية التى بعدت عن المحاكاة بعدا واضحا، إلا ما كان منها فى كتب العلم، استمرارًا للتقاليد نفسها التى سادت هذه المنطقة قبل الإسلام بقرون طويلة.

ونتيجة لذلك فإن الأشكال التى وجدت لا تكفى لدراسة الملابس الإسلامية دراسة وافية مصورة تصويرًا يمكن الاعتماد عليه خاصة وأنها غير ملونة، ولابد من اللجوء إلى شرح الملابس الموجودة لتقود إلى أشكال الملابس وتصورها فقط.

الإنسان والأزياء

ولسنا فى حاجة إلى بيان أهمية الدراسة التاريخية لتطور الأزياء بوصفها من مقومات الحضارة الإنسانية، وقد أدركنا أهمية دراسة تاريخ الفنون المختلفة من رسم ونحت وتصوير

وعمارة، فأقبلنا عليه. وقد حان الوقت فى مصر أن ندرس تاريخ تطور الأزياء وخاصة الملابس المصرية وإلقاء الضوء على نشأتها وتطورها، ونرجع إلى تغطية الإنسان لجسده وهى التغطية التى تطورت فيما بعد على مر التاريخ إلى صور الأزياء وأنماطها التى نراها الآن..

فقد تميزت الملابس فى بادئ الأمر بالبساطة، ثم تدرجت مع رقى الإنسان والحضارة. فلم يكن للإنسان الأول من وسائل الكساء شىء وكان يهيم فى أول الأمر بين الأدغال عارى البدن شأنه فى ذلك شأن سائر الحيوانات، على أن قسوة الطبيعة وتقلبات الجو مما جعل الإنسان يشعر بحاجته الماسة إلى حماية جسمه. فاستخدم أول ما استخدم أوراق الأشجار العريضة الضخمة التى يمكن أن تغطى أكبر جزء ممكن من جسمه، على أن تكون بالطبع من نباتات قوية لا تبلى بسرعة، ولما استطاع أن يوفر لنفسه بعض الأدوات الحجرية التى يستطيع بها أن يصطاد الحيوان اتجه نحو الحيوانات ذات الفراء لأنه وجد فى هذا الفراء وقاية لجسمه من تقلبات الجو. وكانت هذه مرحلة ارتداء جلود الحيوان.

أما الملابس المصنوعة من المنسوجات فلم تظهر إلا بعد ذلك بوقت طويل جدا، فقد وجد أن لبعض الألياف النباتية من المرونة ما يجعلها تأخذ بسهولة شكل الجسم، فابتدأ فى استخدام هذه الألياف. ثم اهتدى إلى طريقة عمل الخيوط من الكتان أو الصوف أو الحرير أو غيره، وصنع من هذه الخيوط نسيجا بسيطا بدائيا فى أول الأمر ثم تولاه بالزخرفة لكى يتخذ مظهرا يشعر من يلبسه بشىء من الفخر.

وقد أولى الإنسان صناعة النسيج والحصول على المواد الأولية للمنسوجات التى تصنع منها الملابس اهتماما بالغا منذ فجر التاريخ ولا زال كذلك حتى وقتنا المعاصر. ولم يقف الأمر إلى حد الحاجة بالنسبة للطبيعة وتقلباتها، بل تعدى ذلك إلى اتخاذها عنصراً لإظهار زينته وتجميل نفسه ونيل احترام الآخرين. وهنا نستطيع أن نقول: إن عنصرا جديدا قد دخل على الملابس ونعنى به عنصر «الأناقة». ويرجع حب التأنق فى الإنسان إلى رغبته الفطرية فى الحصول على إعجاب الآخرين، لأن هذا يساعد على تعاطف الناس، وإلى أن الأناقة تتيح لصاحبها نوعا من التفوق والامتياز، وهذا يرضى غرائز حب الظهور والسيطرة.

وعلى كل حال فالرغبة فى الأناقة رغبة فطرية فى الإنسان صاحبته منذ فجر حياته، وتدل الآثار القديمة على أن الإنسان حتى فى مرحلة الوحشية كان يميل إلى الأناقة، فعندما كان معظم جسمه عاريا كان يزينه بأنواع الوشم ويتفنن فيها، كما استخدم بعد ذلك الحلى المختلفة، وكان لابد أن يتطور هذا إلى ما نراه اليوم من أنواع الأقمشة وألوان الأزياء ومختلف وسائل التزين والحلى وما إلى ذلك.